على هامش النقد :

٣ ـ فى عالم القصـــة

الرواية الشعرية بين شوقى ، وعزيز أباظة

الأستاذ سيد قطب

عيب من عيوبى ، أننى أنفر من الزحمة ، وأكره الضجيج . وأطبق هذا فى عالم الأدب كتطبيقى له فى عالم الحياة . فيكفى أن تثور الضجة حول مؤلَّف أو مؤلِّف ، حتى يصرفنى هذا عنه إلى حين ، ثم أتناوله فى هدوء وانفراد لأرى رأيى فيه . وكذلك أصنع مع كل شخصية فى الحياة يتزاحم حولها المتزاحمون ، إلا أن يخلو الجو ، وتهدأ الضجة ، فأقرب من هذه الشخصية لأتملاها ، وكأنما لم أسمع من قبل عنها شيئاً !

ويسبق إلى نفسى سوء الظن ؛ بكل ضجة وازدحام . ويقع فى بعض الأحيان ، أن يتبين لى خطئى فى إساءة الظن بإحدى الضجات ؛ ولكن هذا لا يعصمنى فى المرة التالية ، من تغلب هذا الطبع ، أو هذا العيب ، الذى أعترف به ولا أخفيه !

كان هذا شأنى منذ أكثر من عشر سنوات مع « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم . فإنى لأذكر أن ضجة استقباله فى عالم الأدب ، قد أخرتنى نحو عام كامل لا أقرأ الكتاب ، ولا أعرف عن صاحبه شيئاً ، حتى قرأته ، فعلمت خطئى فى هذا التأخير

وكذلك كان شأنى مع « قيس ولبنى » لعزيز أباظة . لقد كنت أعرف فيمن أثنوا على الرواية وشاعرها من لا أشك فى صدق تقديرهم وصدق تعبيرهم ولكنى كنت أعرف بجوارهم جماعة أخرى ؛ يضجون ويتبارون فى الضجيج ؛ وأنا على يقين جازم من أنهم إنما يتوجهون بالضجة إلى عزيز بك أباظة المدير !

ولما كنت قد قضيت شطراً من حياتى فى احتقار هذا الصنف من الناس ؛ وفى كشف العوامل الخفية التى تحفز هذه الطفيليات الواغلة فى الأدب . فقد وجدتنى ـ دون وعى ـ أعزف عن شهود الرواية وهى تمثل على المسرح ، وأعزف عن قراءتها بعد أن طبعت فى كتاب . وكأنما اختلطت الرواية فى وعيى

ذكروا صنفاً من البطيخ عنده مرة ، فأرسل من اشترى لهم منه حملاً كاملاً ، أكلوا منه ونعموا ، ولم يذق هو منه شيئاً ... لو ذكرنا ذلك كله لما ضحك أحد علينا حين نستنتج أن أبا العلاء لم يكن يعلم الطلبة لله ، ولم يكن يؤلف كتبه ـ حين تطلب منه ـ لله ! بل كان الرجل يأخذ على ذلك كله أجوراً تتراوح بين القلة والكثرة ، وإن يكن لم ينعم من أجورها بشىء إلا ما ينفقه على ضرورات حياته الضيقة ، ثم ينفق الباقى فى شراء الورق أو الكاغد أو المداد والأقلام ... وفى شراء المصادر التى لم يكن له غناء عنها ... إذ من السذاجة أن نذهب مع الذاهبين إلى أن ذهن أبى العلاء ، بالغا ما بلغ من القوة ، كان يختزن كل تلك الغرائب اللغوية دون حاجة إلى مصدر يضبطها له أو يمسكها عليه . وقد أشار الدكتور طه فى غير كتاب من كتبه عن أبى العلاء إلى أن الرجل كان يقبل الهدايا من أصدقائه ومحبيه . ولست أدرى ماذا منع الدكتور من الجهر بما نذهب إليه الآن من أن أبا العلاء لم يكن يعلم ولم يكن يؤلف ، لله ، ولا بالهدايا ، ولكن بأجر كريم معلوم . إذ ما سؤال هذا الدمشقى عن أبى العلاء ، وما إحفاؤه المسئلة عنه ، وما إرادة أبى العلاء أن يجزيه على ذلك ؟ أصحيح أن إحفاء المسئلة عن أبى العلاء هو كثرة السؤال عنه ؟ كلا ... فإن لم يكن فى الرواية خطأ فى النقل فالمقصود هو وفرة ما كان يغمر به الرجل أبا العلاء من الهدايا ، كما يظن الدكتور طه ، ومن المال الكريم المعلوم كما نظن نحن ...

ولكن ما شاعرية أبى العلاء وأثر ذلك كله فيها ؟

إذن فرأينا أن أبا العلاء كان شاعراً عالماً أول أمره بالشعر والعلم ، فلما انطوى على نفسه فى المعرة سنة ٤٠٠ هـ صار عالماً شاعراً . فأبو العلاء فى سقط الزند غير أبى العلاء فى اللزوميات . إنه فى سقط الزند شاعر عالم فيلسوف ، لكنه فى اللزوميات فيلسوف عالم شاعر ... ولن تكن له فى اللزوميات قطع تزرى بعض أبياتها بأكثر ما نعرف من شعر

والذين يقولون إن ثقافة أبى العلاء قد ذهبت بطلاوة شعره ، أناس لا يعرفون أبا العلاء حق المعرفة . إنهم حريون أن يسألوا : ماذا اضطر أبا العلاء إلى هذا المركب الخشن فى شعره وفى معظم ما ألف من الكتب ؟ ولقد أجاب رجل أبى العلاء عن ذلك ، فليرجع إليه من شاء .

الباطن بما أكرهه من تزاحم المتزاحمين !

وأخيراً أقرأ في مجلة الثقافة للدكتور الفاضل أحمد بك زكي كلمة تحت عنوان : « بين المقروء والمسموع » يثني فيه على « قيس ولبنى » ثم يوازن بينها وبين « مجنون ليلى » فيفضل الثانية على الأولى

والدكتور زكي بك من الرجال القلائل الذين أشعر لهم بالود والاحترام في هذا الزمان ، والذين أثق بأخلاقهم وتلذ لي قراءتهم في آن . ولكني أعرف « مجنون ليلى » وأعرف مستواها الفني والتعبيري !

قلت في نفسي : إن كلمة هذا الرجل الفاضل في الموازنة بين الروايتين فرصة سانحة لقراءتهما جميعاً

* * *

قال الدكتور زكي :

« وجلست إلى « قيس ولبنى » أقرؤه ساعتين حتى أتيت على آخره . أفتدري إلام شاقني ؟ شاقني إلى صنوه « مجنون ليلى » لشوقي بك . ومددت يدي فجررته من محبسه على رف الكتب . وأخذت أقرأ لشوقي ، فما أحسست أني انتقلت بعيداً . كان إحساسي إحساس من انتقل من منشستر إلى لندن ، أو من ليون إلى باريس ، أو من الأسكندرية إلى القاهرة . الناس هم الناس ، واللسان هو اللسان ، وأسلوب العيش هو أسلوب العيش ، والمدنية هي المدنية ، وإنما في ظرف أكبر . فعزيز يترسم خطوات شوقي ، وله من جزالة لفظه ما يعينه على أن يحاكيه فيقاربه ، ويقاربه كثيراً . وهذه خير تحية (يتحى[1]) بها شاعر في مصر أو في الشرق كله

« كان هذا إحساسي . إلى أن بلغت إلى قول شوقي على لسان قيس . قيس ليلى . إذ بلغ وهو في سبيله إلى ليلى ، جبل التوباد ، ملعب صباهما ومرتع شبابهما . قال قيس ليلى :

جبل التوباد حياك الحيا ... وسقى الله صبانا ورعى
فيك ناغينا الهوى من مهده ... ورضعناه فكنت المرضعا
وحدونا الشمس في مغربها ... وبكرنا فسبقنا المطلعا
وعلى سفحك عشنا زمناً ... ورعينا غنم الأهل معا
هذه الربوة كانت ملعباً ... لشبابينا وكانت مرتعا
كم بنينا في حصاها أربعاً ... واثنينا فمحونا الأربعا
وخططنا في نقا الرمل فلم ... تحفظ الريح ولا الرمل وعى
« الله ! الله !
لم تزل ليلى بعيني طفلة ... لم ترد عن أمس إلا إصبعا
ما لأحجارك صمّا كلما ... هاج بي الشوق أبت أن تسمعا
كلما جئتك راجعت الصبا ... فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعا

« الله ! الله ! مرة أخرى ، لهذا البيت الأخير

« بلغت هذه القطعة ، فقلت : معيار المقارنة أن أجد مثلها لقيس لبنى . وبحثت فلم أجد

« أم أنا عميت ؟ ربما ...

« أم أني نظرت في الكتابين نظرة القارئ العادي ، ومثل هذا الذي طلبت ، يحتاج لا إلى بصر قارئ مثلي عابر ، وإنما إلى بصيرة أديب مكين ؟ ربما أيضاً »

* * *

ومع احترامي لهذا التواضع العلمي النبيل فيما كتبه الدكتور العالم الأديب . فإنني أخشى أن تكون عاطفة « تقديس الموتى » — وهي عاطفة إنسانية عامة وعاطفة مصرية خاصة — قد غلبت في نفسه على حاسة الفن ، التي ألمحها في كل ما يكتبه !

وإلا فما يمكن أن يقرأ الإنسان هاتين الروايتين في وقت واحد ؛ دون أن يحس بالفارق الهائل بين الحياة الحارة والصدق الطبيعي ، في « قيس ولبنى » ، وبين الموت البارد ، والتلفيق المتهافت في « مجنون ليلى » من ناحية رسم الشخصيات وإجراء الحوادث والعرض الفني . ولا بين الطلاقة والقدرة على الأداء في الرواية الأولى ، والاضطرار والتهافت في مواضع كثيرة من الرواية الثانية

ويجب أن يلاحظ أنني أتحدث عن « الروايتين » لا عن « الشاعرين » فشوقي الشاعر قد يكون أكبر من عزيز أباظة الشاعر في مجموعهما . ولكن رواية « مجنون ليلى » أصغر بما لا يقاس من رواية « قيس ولبنى » . أصغر من جميع الوجوه التي تقاس منها الرواية الشعرية

والقطعة التي اقتبسها الدكتور زكي من « مجنون ليلى » قطعة عذبة النغمة جميلة التصوير ، وهناك قطعة أخرى أو قطعتان في الرواية من هذا النوع . ولكن الرواية وحدة كاملة تقاس

(١) صحتها (يحيا) ولعلها سهو السرعة والقياس من كلمة تحية

بمجموعها : برسم الشخصيات ، وإجراء الحوادث ، وعرض المشاهد ، والتعبير القوى عن هذا كله فى النهاية . وقياس الروايتين على هذا النحو ، لا يدع مجالاً للشك فى تقرير الحقيقة التى أسلفناها

إن معظم الخطأ الذى قد نقع فيه عند الموازنة بين عمل شاعر كشوقى بك ، نال فى زمانه شهرة عالية ؛ وبين عمل لأحد الأدباء المعاصرين . إنما ينشأ من اعتمادنا على ما تحوى ذاكرتنا من طنين سابق ؛ واطمئناننا إلى هذه الأوهام المقررة ؛ والاستغناء بذلك عن مراجعة الأثر الفنى مراجعة جديدة

ولكن الدكتور زكى بك يقول : إنه أعاد قراءة « مجنون ليلى » . وهذا هو موضع العجب . فالأمر من الوضوح الحاسم ، بحيث لا يقع فيه التباس

إن عمل شوقى بك فى « مجنون ليلى » كان عملاً مشكوراً من الوجهة التاريخية فى الأدب . وذلك لفتح هذا المجال ، ومحاولة نظم الرواية فى اللغة العربية — وإن يكن غيره قد حاول قبله ولم يبلغ ما بلغه — وعند هذا الحد يقف تقدير هذه الروايات التى أخرجها جميعاً ، و « مجنون ليلى » فى أولها

فأما حين تعرض هذه الروايات للتقدير الفنى ، فإنها تبدو عملاً بدائياً متهافتاً من جميع الوجوه

وأول ما يلحق الناقد فى « مجنون ليلى » هو البرود والركود . فالمجنون — وهو المثل الأعلى لحرارة العاطفة ، وللجد فيها ذلك الجد المتلف — يصبح فى يد شوقى طيفاً متهافتاً كأنه أحد شبان القاهرة المترفين الأطرياء اللطاف ! كل حرارة الحب عنده بكاء ودموع وإغماء . وذلك كل نصيبه من الجد فى هذه العاطفة المشبوبة . بينما يلمح فى « قيس ولبنى » حرارة العاشق ، وحركة الإنسان ، وخولة هذه العاطفة فى نفسه المحبة المهتاجة

إنك لا تلمح مرة واحدة فى « مجنون ليلى » تلك الحرقة اللاذعة ، ولا تلك الثورة العاصفة . ولم تكن كل ميزة المجنون هى الحب المتهالك الذائب من الرقة والحنين — كما فهم شوقى وكما يفهم الكثيرون من الظرفاء المترفين الوادعين — إنما كانت هى الثورة المشبوبة والحرقة الموقدة ، والاضطرام العنيف

لقد كان يحب ، ولم يكن « يتدلع » ! وكان هذا الحب يتمعقه ويهيجه ويشقيه ، وكان هذا الحب يقيمه ويقعده ويثير أعمق مشاعره ، ويهزه فى الصميم ؛ ولم يكن الإغماء والنواح هو كل حظه من الحب المجنون !

استمع إليه فيما يروى له من شعر ، ثم استمع إليه فيما ينطق به شوقى ، تجد المسافة شاسعة بين شعور وشعور :

استمع إليه يقول :

فيارب إذ صيّرت ليلى هى المنى
فزِدنى بعينيها كما زنتها ليا
وإلا فبغضها إلىّ وأهلها فإنى بليلى قد لقيت الدواهيا

أو قوله :

كأن فؤادى فى مخالب طائر إذا ذكرت ليلى يشدبه قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم علىّ فما تزداد طولاً ولا عرضا

هذه النغمة الجادة ، التى تشعرك « بالهول » فى هذا الحب العنيف العميق ، لا تسمعها مرة واحدة فى « مجنون ليلى » . وذلك هو المقياس الأول فى صحة رسم شخصية المجنون ، وتصوير عاطفته كانسان يحب حقيقة ، لا مترف يتظرف بالتهالك فى الحب و « يذوب » حنيناً وإغماء كأن « الذوبان » هو وحده دلالة الحب الانسانى العميق !

فإذا شئت هذه النغمة الجادة الصادقة العميقة ، فإنك واجدها فى « قيس ولبنى »

إن شوقى لم يعرف الحب ، وأغلب الظن أنه لم يعرف « الألم » والألم هو ذلك الزاد الإلهى ، الذى يفجر عواطف الفنان ؛ وبدونه يصبح الفن بل تصبح الحياة كلها متعة رخية توحى باللطف والرقة ، ولكنها لا توحى بالعمق والصدق . وما الحب وما الحياة بدون الألم الصادق العميق ؟

أما عرض المواقف والمشاهد ، فتبدو فيها السذاجة وقلة الحيلة ، فى إثارة النظارة بالمشاهد الملفقة . وذلك طبيعى ما دامت الحرارة الإنسانية الطبيعية مفقودة

وإلا ففيم هذا الإغماء الذى لا يفيق منه المجنون حتى يعود إليه خمس مرات ! لقد أغمى على « قيس لبنى » مرتين . ولكن ذلك كان لمرض هدّه ولأزمات نفسية حقيقية تهد الكيان . أما المجنون ، فيبدو لنا متهالكاً متهافتاً منذ أول فصل فى الرواية ، قبل أية أزمة من الأزمات ، قبل أن تمنع منه ليلى وقبل أن يهدر دمه وقبل أن تتزوج سواه فكأنما هو

« مستعد سلفاً » لهذ « الذوبان » الرقيق لأن هذه هي سمة الحب الوحيدة ، كما يتوهمها الرجل الظريف !

ومشهد وادي عبقر وشياطينه وحواره مع شيطانه ، وكذلك مشهد الصبية الذين يتحاورون : فريق مع المجنون وفريق عليه كلاهما حيلة من الحيل الرخيصة ، التي تنشئها « قلة الحيلة » للفت النظر ، حيثما تقل الحرارة الطبيعية الصادقة !

وأعجب شيء هو ذلك الخصام بين رجال قيس ورجال لبنى ، وكأنه لا يجرى في الصحراء وما بها من رجولة وفتوة ، إنما يجرى في « صالون » بين بعض المترفين الظرفاء ويا للأخفاق عند ما أراد شوقي أن يقلد شكسبير في يوليوس قيصر ، فيصور ثورة الجماهير واندفاعها من جانب إلى جانب ، متأثرة ببلاغة خطيب !

وموقف « ورد » زوج ليلى ذلك الموقف الطريّ المريب . ألكي يقول لنا : إنه رجل كريم عطوف . لقد صور لنا « عزيز أباظة » ذلك الموقف نفسه أو ما يشبهه يقفه زوج لبنى فلم يمل به إلى هذه الطراوة المخنثة ، وهو يصور نبله وكرمه . ذلك أنه صوره « إنساناً » حياً ، لا دمية من الدمى ، التي عرضها شوقي وسماها أشخاصاً !

وذلك في الحقيقة هو الفارق الأصيل بين الروايتين والمؤلفين وهو يلخص الفوارق كلها ، ويختصرها : الصدق والطبيعة ، والتلفيق والصنعة في كل موقف ، وفي كل شخصية ، وفي كل عاطفة أو شعور

ومن العجيب أن تخون شوقي في رواياته الشعرية أقوى خصائصه التي بهرت أهل زمانه ، وهي قوة الأداء ووضوح التنغيم . ففي مجنون ليلى اضطرارات في التعبير لا تجد لها مثالاً واحداً في « قيس ولبنى »
ففي بيت واحد كهذا :

لِم إذن يا هند من قيس ومما قال تَبْرا

يضطر إلى تسكين الميم في « لِمَ » وتسهيل الهمزة في تبرأ . ويطرد هذا التسهيل في مواضع شتى مثل (كيف تجرًا) أي تجرأ ، و (تهزا بنا) أي تهزأ . . الخ

وتشاء تصبح « تشا » فقط اضطراراً للقافية في قوله :

وليلى تفيض على من تشاء رضاها وتحرمه من تشا

و « مُنازل » تصبح « مُنازِ » فقط لضرورة الوزن في قوله :

« أنعم (منازِ) مساء نعمت سعد مساء »

وليلى تصبح (ليلَ) لنفس السبب في بيت ينطق به ثلاثة :

وغل الليل فلنقم
بل رويداً واسمي (ليلَ)
خلّ عني دعني

ومظلوم هذا « الترخيم » الذي يسرف شوقي في استعماله كما نادى واحتاج للحذف خضوعاً للضرورات النظمية !

والرُّبى تصبح (الرُّبَ) لحركة القافية :

عارضنا الحسين في طريقه ليشرب
هذا سنى جبينه ملء الوهاد والرُّبَ

وشيطان من وادي عبقر ممن يوحون بالشعر للشعراء يهبط ويهبط حتى يضع لا للناهية في موضع لا النافية لضعفه في النظم كقوله . « لا أدر . تلك ضجة » !

وكثير من مثل هذه الاضطرارات التي يعانيها المبتدئون في النظم ، والتي تندر في شعر شوقي في غير الروايات ، مما يدل على أنه كان يعاني ، لا في تلفيق المواقف فحسب ، ولكن في تذليل النظم أيضاً

وهذه عيوب تفهم حين ننظر نظرة تاريخية كما قلنا ، فنسجل أن شوقي كان يطوع اللغة لفن جديد عليها فكان عمله هو عمل المبتدىء ؛ وجهده هو جهد المبتدىء . وهذا كلام مفهوم . فأما حين نقيسه إلى عمل ناضج من الوجهة الفنية ومن الوجهة التعبيرية كالعمل الذي قام به عزيز أباظة في « قيس ولبنى » فإننا نشعر بالفارق العظيم بين العملين من الوجهة الفنية الصحيحة .

سيد قطب

ظهر حديثا

الذئاب الجائعة

بقلم محمود البدوى

يطلب من مكتبة مصر ٦٣ شارع الفجالة ـ القاهرة
الثمن ١٥ قرشا مصريا هدا البريد